

## المقالة الرابعة عشر<sup>١</sup>

### في رثاء النفس

في بعض الأيام نهضت في الدلج ؛ وذهبت أنا واثنان من الأخوان إلى مدينة الرها المباركة ؛ فرفعت عيني إلى فوق السماء فعاينت المدينة كامرأة صافٍ صقالها ؛ تتلأأ على الأرض كالنجوم لامعة بمجد .

فإذ تعجبت كثيراً قلت: إن كانت هذه البرايا تلمع بمجد هكذا كم أولى بالقديسين والصدّيقين الذين صنعوا مشيئة الإله القدوس ؛ في تلك الساعة إذا جاء الرب أن يشرقوا أكثر بنورٍ لا ينعت ؛ بنور مجد المخلص .

وللحين تذكرت ورود المسيح المرهوب ؛ فاضطربت عظامي ، وانقطعت قوة نفسي مع جسمي ؛ وبكيت بوجع قلب ؛ وقلت بزفرات : كيف أوجد أنا الخاطي في تلك الساعة الرهيبة ؟ كيف أمثل بحضرة مجلس القاضي المرهوب ؟ كيف أوجد أنا المنتزه مع الكاملين ؟

أم كيف أفأف أنا الجدي مع الخراف عن ميامن المسيح ؟ أم كيف أوجد أنا الغير مثمر مع القديسين العاملين هنا ثمر العدل ؟ أو إذا عرف القديسون بعضهم البعض في الحجة السماوية ماذا أصنع أنا ؟

ترى من يعرفني ! هل الصدّيقون في الخدر ؟ أو المنافقون في النار ؟ فترى الشهداء عذاباتهم والنسك فضائلهم . فماذا أرى أنا سوى رخاوة نيتي ، أيتها النفس المنتزهة ، يا نفسي الخاطئة، أيتها النفس التي لا حياء لها، أيتها النفس الماقتة حياتها إلى متى تجذبك الهوم على الأرض ؟

إلى متى يجرك سوء عادة الأفكار الخبيثة ؟ أما قد علمت أن الأفكار الخبيثة في كل ساعة تصير كسحابة مظلمة قدامك ؛ وتحجزك عن أن تقفي لدى الله .

أنت تتوقعين بوفور ونيتك أن الختن السماوي سيبيط في وروده ، لا يبيط يا شقية بل كبرق خلب يكون وروده من السماء ، احرصي أن توجدي مستعدة في تلك الساعة المخيفة ؛ لكي لا تبكين هناك إلى أبد الدهور .

لا تصغي بالكلية إلى هفوات آخرين ، بل انتحبي على زلاتك ، لا تبصري إلى القذاء في عين الأخ والقريب ، بل تأملي الجذع في ناظرك تأملاً متواتراً ، إن أمكنك أن تنتزعي أولاً الجذع من عينك فأخرجي قذاء الأخ والقريب ، وإن لم يمكنك فنوح على ظلمتك المستصعبة .

كيف تظنين أنك تمنحين القريب نوراً ، صيري يا نفسي طيبية لذاتك كل ساعة ؛ ثم بعد ذلك أشفي أذاك السقيم ، فليست لك حجة عن توانيك لأن الإله الرحوم قد أعطاك كل المواهب ، تمييزاً وفهماً ومعرفة روحانية ، فاعرفي منذ الآن ما يوافقك .

فبكي عند ذلك الأخوان اللذين معي ؛ وقالوا : لم تبك أيها الأب بكثرة نحيب ؟ فقلت لهما : يا ولدي المحبوبين أنوح على ذاتي من أجل ونيتي ، لأن الإله الصالح قد أعطانا استنارة العلم وأنا أخالفه يوماً فيوماً .

لأنني إن أكملت مشيئة الرب فسأكون في تلك الساعة مغبوطاً ؛ ولست وحدي بل والذين يعملون مسراته ، فمن أجل هذا يا إخوتي لا معذرة لنا هناك البتة لأننا نخطئ بمعرفة ، فلنتأمل تدبير الله في كافة المواهب التي أعطانا إياها .

<sup>١</sup> كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في بركة الأنبا مقاريوس طبع سنة ١٨٩٢

فنعتمه تتعهد قلوبنا دائماً ؛ فحين تجد راحة لها تدخل تسكن في النفس سرمداً ؛ وإن لم تجد القلب نقياً نظيفاً تتباعد عنه ، ثم تضطرها رافاتها أن تتعهد الخاطئين . فإذا كنا متغيري العزم ؛ وذهننا يستحيل متقلباً ، أليس بالطبع نوجد دائماً منتزهين ومسترخين حسودين خبثاء مفكرين بعضنا ببعض أفكاراً رديئة ، فاسقين نجسين متذكرين أفعالاً رديئة خبيثة ، دائماً مطروحين في حماة منتنة من الأفكار .

فإذا جاءت النعمة تفتقدنا تجد في قلوبنا نتانة الأفكار الخبيثة ، فنتنحى وتتبع إذ لم تجد مدخلاً تدخل وتسكن فينا كما تريد ، سوى أنها تنخر القلب بحلاوة منيرة ليحس بأنها تعهدته ولم تجد لها مدخلاً .

لكي إذا تحلى الإنسان بالأنوار سار يطلبها ؛ ومع هذا فهذه النعمة لا يمكنها أن تتباعد منا بالجملة لأن تحننها يلزمها ويضطرها أن ترحم الكل .

أرايت تدبير الله السابق ، أرايت تحنن المسيح الإله القدوس كيف يحبنا دائماً مريداً أن يخلصنا . فمغبوط الإنسان الذي يحرص كل وقت أن يعد قلبه نقياً نظيفاً للنعمة ؛ لكي ما إذا جاءت تجد فيه طيب نسيم الفضائل وطهارة النفس فتسكن فيه إلى أبد الدهور .

فماذا نعطي الإله المتحنن عن كافة خيراته ومواهبه ، إذ نزل من السماء من لدن الآب ؛ وتجسد من أجلنا في مستودع البتول ، ومن أجلنا لطم مثل عبد ، فماذا نقضي عن اللطمة وحدها ؟ إن عشنا على الأرض ألف سنة لا نستطيع أن نفي الله كما يجب له مجازاة نعمته .

إني أخشى من هذا يا ولدي المحبوبين ؛ لأنني أعرف ونيتي وأخاف من أن يكون كافة الناظرين إليّ ؛ ومطوبي ورعي الكاذب ؛ يبصقون عليّ هناك إذا أبصروني متحرراً بالنار .

أرث يارب ، أيها المتحنن ، المسيح المخلص ؛ الابن الوحيد ؛ لعبدك العاطل لئلا أوجد هناك قدام المنبر واقفاً بخوف وخزي عظيم ؛ وعاراً للمشاهدين أي الملائكة والناس .

أدبني هنا يا مخلصي كما يليق بالأب المتحنن المحب ولده ، واغفر لي هناك بما أنك أنت الإله السماوي الغير خاطئ وحدك ، فإنك إن لم تيقظ الشقي وتعطيه استنارة قلب ليتوب بلا خجل عن خطايه ، فماذا يصنع هناك إذ لا عذر له ؟

فإذ لم أكن موجوداً على الأرض فجبلتني يا سيدي برأفاتك الجزيلة في جوف أمي الخاطئة ، وولدت أنا الغير مستحق برحمتك ؛ وأهلته أن أصير أناة لنعمتك ؛ ورباباً جليلاً تترنم على الدوام كلمات الخلاص لكافة السامعين .

فأخذت هذه الصلاة أنا المسترخي الخاطئ ؛ وأنكرت بتواني وإرتخائي ؛ لكن نعمتك لا تزال تترنم بغم المتواني ترنيمات بارة ؛ وتنبير المعقول المظلم؛ وتحرك في نغمات ترنيمك أيها المسيح .

فمن أجل هذا أجنو ساجداً لنعمتك أيها الابن الوحيد مخلص نفوسنا ؛ طالباً كما صارت عنا نعمتك في أنا الغير مستحق كل ساعة استنارة وصيانة ونصراً وفرحاً ؛ أن تسترني هناك تحت أجنحتها من تلك الطائلة المخيفة ؛ وتوقفني في الجهة اليمنى في ملكك ؛ مترافاً عليّ ؛ مخلصاً إياي برحمتك ؛ لأسبح وأمجد طول أناتك ؛ لأنك لم تعرض عن عبرات عبدك العاطل الخاطئ .

لك المسيح إلى أباد الدهور. آمين